



جامعة الشهيد نعمان بن حنبل - الوادي
كلية العلوم الإسلامية



بالتعاون مع : مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

الندوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

التنمية الاجتماعية والثقافية

الأربعاء والخميس : 30 و 31 أكتوبر 2024م

المعالجة الفكرية لقضية الثقافة في المشروع النهضوي لمالك بن نبي

دراسة سوسيومعرفية

إعداد

الدكتور/ خلف محمد عبد السلام بيومي

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة قناة السويس - جمهورية مصر العربية

khalafsociology1973@gmail.com

مقدمة منهجية في إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

يمكن للمتتبع للمسار الفكري لمالك بن نبي أن يلحظ التأثير الذي مارسه مشروعه الفكري وأطروحاته النظرية حول موضوعات على جانب كبير من الأهمية، وفي مقدمتها: الثقافة، الحضارة، التخلف، النهضة، والاستعمار.... وغيرها. كما أن السقف الفكري والأفق المعرفي الذي ينطلق منه مشروعه النهضوي والتغييري يتأسس على أن جوهر الحياة يكمن في منظومة الأفكار⁽¹⁾. وبناء عليه فإن هذا المشروع يتميز بكونه مشروعاً شاملاً يمسّ جميع جوانب المجتمع وثقافته الروحية والمادية، فهو يُعد واحداً من أهم المشاريع الفكرية النقدية في تاريخ الفكر العربي الحديث في نقده للمجتمعات العربية والإسلامية وفق رؤية فكرية ومنهجية متكاملة تُركز على فهم أصول المشكلات المجتمعية وطرح أنسب الحلول بعيداً عن الرؤى التجزيئية⁽²⁾.

إن القيمة العلمية التي تحملها أفكار مالك بن نبي تبدأ من العلاقة القوية بين الفكر والواقع، والثقافة والبناء، وهي علاقة تشير إلى اتساع نظريته وتميز منهجه في دراسة قضايا ومشكلات العالمين العربي والإسلامي في عصر يشهد أعظم التحديات الحضارية، وأكبر التغيرات الثقافية والعلمية⁽³⁾.

من اللافت للنظر أن هناك طفرة كبيرة في الكتابات حول مالك بن نبي (مقالات ومؤلفات ورسائل جامعية)، والتي بدأت في العقد الأخير من القرن العشرين، وتصاعدت في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ومازالت في حالة تصاعد ولم تتراجع أو تتوقف، الطفرة التي كان يُفترض منها أن تلفت الانتباه إلى الأبعاد الغائبة وغير المطروقة؛ سعياً وتجنباً لآفات التكرار والاجترار، ومنعاً من الإصابة بالرتابة والجمود⁽⁴⁾.

-
- 1- الطاهر سعود: مشروع النهضة في فكر مالك بن نبي وتمثالاته لدى النخبة الجامعية الجزائرية بين زمن الاستقلال والزمن الراهن: استطلاع ميداني، مجلة إضافات، العددان (47،48)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، صيف وخريف 2019، ص 117-119.
 - 2- عباس شارف: في النقد الحضاري للمجتمع الجزائري: مالك بن نبي نموذجاً، مجلة أوراق فلسفية، العدد(26)، 2010، ص 363-364.
 - 3- بن عيسى باطاهر: قضية إعجاز القرآن عند مالك بن نبي، مجلة عالم الفكر، المجلد(31)، العدد(2)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر-ديسمبر 2002، ص 31.
 - 4- ذكي الميلاذ: مالك بن نبي ناقداً لإقبال، مجلة الكلمة، العدد(91)، السنة الثالثة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2016، ص 7.

ومن أهم النتائج المهمة التي توصلت إليها دراسة "الأخضر" عام 2013، أن مشروع مالك بن نبي النهضوي في حاجة ماسة إلى أن نقرأه ونفهمه، ونُجرى عليه الدراسات والبحوث، لا بقصد الترف الفكري، بل من أجل أن نتمثله في حياتنا، ونستثمره في الخروج من مأزقنا، على الأقل فيما هو صالح منه للتطبيق، كما فعلت بعض البلدان الإسلامية كماليزيا وأندونيسيا⁽¹⁾.

كما كشفت نتائج إحدى الدراسات المهمة عن أن جميع المبحوثين (أساتذة بالجامعات الجزائرية) أفادوا بأن مشروع النهضة لمالك بن نبي لا يزال إلى اليوم يحمل طابع الراهنية، كما أنه لم يُستثمر بصورة واقعية ولم يُتَّح له التنزيل إلى حيز الواقع، وأنه مادامت القضية التي عالجها هذا المشروع لم تجد بعد طريقها إلى الحل (أي مشكلة الحضارة) فإن هذا المشروع يحتفظ بكامل قوته ولياقتة. كما أجمع المبحوثون بأنه لكي يسهم مشروع مالك بن نبي في إطلاق عملية إعادة بناء وتجديد تنقل العالم الإسلامي إلى أفق حضاري جديد، لابد من تجاوز دائرة القول النظري إلى أفق المشاريع العملية، بمعنى أن ما يتقص هذا المشروع الفكري هو إرادة سياسية تتبناه وتحوله إلى مشاريع عملية⁽²⁾.

ولا شك أن الثقافة ظاهرة محيرة ومربكة، وهي توجد في كل مكان، وغامضة وصعبة الفهم في كليتها وتعمدها؛ ومن ثم فإن أي محاولة لتحليلها ستبوء بالفشل إن شاءت استيعابها ككل. ويلاحظ أن علماء الاجتماع مضطرون إما لدراسة جانب من جوانبها أو العديد منها بدقة، أو محاولة إقامة بناء نظري يسعون من خلاله إلى استيعاب المكونات الأساسية لكل الثقافي⁽³⁾.

ولما كانت الثقافة (العادات، التقاليد، القيم، الأفكار،...) تقع في قلب هذا المشروع الفكري، وتشغل حيزاً كبيراً فيه؛ فإن هذه الدراسة تروم لتقديم دراسة سوسيو معرفية، تُركز على التناول الفكري لمالك بن نبي لقضية الثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية. وترتكز منهجية هذه الدراسة على المنهج التحليلي لبعض مؤلفات مالك بن نبي، وكذا بعض الكتابات التي اهتمت بمشروعه الفكري بالدراسة والتحليل. وتكفينا إشارات مختصرة هنا للتدليل على اهتمام مالك بن نبي بقضية الثقافة، فنجد أنه قد أفرد لها مؤلفاً كاملاً بعنوان "مشكلة الثقافة" يقع في (152 ص)، ونجد لها حضوراً أيضاً في بعض مؤلفاته مثل: مبحث بعنوان: "السياسة والثقافة" في كتابه المعنون بـ "بين الرشاد والتيه" وكذلك يوجد لها مبحث آخر

1- قويدري الأخضر: لماذا لم ينته المشروع الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر؟، مجلة الكلمة، العدد (80)، السنة العشر، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2013، ص159.

2- الطاهر سعود، مرجع سابق، ص135.

3- ميشيل فوكو وآخرون: التحليل الثقافي، (تحرير) : إيدث كريزويل وآخرون، (مراجعة وتقديم): أحمد أبوزيد ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص155.

بعنوان "الثقافة" في كتابه "تأملات". ومن المعلوم أن الأفكار أحد عناصر الثقافة، فلمالك بن نبى كتاب بعنوان "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامى" يقع في (182ص). كما شغلت الثقافة جزءاً كبيراً في كتاب "شروط النهضة" سواء معالجتها بشكل مباشر أو تناولها من خلال أحد مكوناتها كالأناشيد الرمزية، الأفكار الدينية، الفنون، الأزياء، العمل، الأخلاق. وكل هذا يشير إلى أن قضية الثقافة في هذا المشروع الفكرى بحاجة إلى تأمل ودراسة وتحليل؛ وخاصة أن الذين كتبوا عن هذا المشروع الفكرى كثيراً ما اهتموا بجوانب اقتصادية، تربوية، حضارية، دينية، تاريخية، وتنموية، وغابت إلى حد كبير الدراسات التى تهتم بالجوانب الثقافية في هذا المشروع.

وإذا كان "إميل دوركايم" قد أرسى قاعدة منهجية، وتبناها "كارل مانهايم" فيما بعد، ومفادها: أنه يمكن تحليل التيارات (المشروعات) الفكرية في ضوء المجتمعات التى ظهرت فيها، بمعنى أن تتم دراستها وتحليلها في السياقات الاجتماعية والثقافية التى تبلورت فيها، ومن ثم فإنها تُعد ظواهر اجتماعية يمكن إخضاعها للدراسة والبحث والتحليل⁽³⁾. ومن هناك فإن إشكالية هذه الدراسة تتلخص في التساؤل الإشكالى التالى: كيف عالج مالك بن نبى قضية الثقافة في مشروعه الفكرى؟ وللإجابة على هذا التساؤل كان لابد من تقسيمه إلى عدة تساؤلات فرعية هى:

- 1- ماذا تعنى الثقافة كمفهوم وكنظرية في المشروع الفكرى لمالك بن نبى؟
- 2- ما أهم المفاهيم والقضايا وثيقة الصلة بقضية الثقافة في هذا المشروع؟
- 3- هل ربط مالك بن نبى بين الثقافة ونهضة المجتمعات العربية والإسلامية؟
- 4- إلى أى مدى اهتم مالك بن نبى بمعالجة الثقافة على المستويين النظرى والتطبيقي؟
- 5- ما أهم التحديات التى تواجه ثقافتنا العربية في المشروع النهضوى لمالك بن نبى؟
- 6- كيف تتحقق التنمية الثقافية لمجتمعاتنا العربية وفقاً لرؤية مالك بن نبى؟

مفهوم الثقافة ونظرية الثقافة عند مالك بن نبى

أولاً: مفهوم الثقافة ونظريتها في المشروع الإصلاحي لمالك بن نبى:

اعتنى مالك بن نبى بالمفاهيم عناية فائقة، بل ذهب أبعد من ذلك حين وضع مبحثاً خاصاً يوضح فيه آلية إبداع وضبط المفاهيم، كما حذر من استعمال المفاهيم والمصطلحات التى تفرزها المعامل الاستعمارية⁽¹⁾.

1- عبدالقادر بوعرفة: مالك بن نبي بين الراهن والمستقبل: دراسة نقدية لرسم معالم البنائية الجديدة، 2020. متاح على الموقع الإلكتروني: <http://www.binnabi/infos/detail/kwi78sd149lx45/>

بنى مالك بن نبي مفهوم الثقافة على أساس قراءته للواقع، وأخذ بعض الخصائص لقياس ذلك المفهوم على الواقع وتشخيص طبيعة الأزمة التي يُعانيها العالمين العربي والإسلامي⁽¹⁾.
عرّف بن نبي الثقافة بصورة عملية بأنها " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه". وبناء على هذا التعريف تُعد الثقافة بمثابة المحيط الذي تتشكل فيه طباع الفرد وشخصيته، وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر⁽²⁾.

إن تعدد وجوه الثقافة يجعلنا نتناولها من جانبها (أسلوب الحياة في مجتمع معين، والسلوك الذي ينتهجه الفرد كي ينسجم مع هذا الأسلوب) بوصفها شيئاً معقداً، إلى جانب أنها تُفسّر لنا الفرق الطبيعي بين طريقة مواجهة مشكلة الثقافة في بلد أخذت فيه الثقافة صورة واقع اجتماعي معين، وآخر لا يعرفها إلا بوصفها مشروعاً، وثالث مازال المشروع فيه غامضاً. لكن تعدد وجوه الثقافة لا يساعدنا في تعريفها على أنها "شيء"، بل على أنها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تُحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تُحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد. فلكي نُعرّف الثقافة نجد أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر إلى المشكلة في اتجاهين، بل في ثلاثة اتجاهات، حتى يتسنى لنا أن نضم عناصرها النفسية وعناصرها الاجتماعية، ثم نُقر العلاقة الضرورية بين هذه العناصر جميعاً، وأخيراً لكي نصوغ هذه العلاقة صياغة تربوية وافية، تجعل التعريف قابلاً للتنفيذ كأنه (صورة) من صور الرسم الصناعي⁽³⁾.

يرى مالك بن نبي أنه يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كإرث أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يُشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته". وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يُحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاق الإنسان وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان (الفرد) ومعطيات الجماعة، مع ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، وذلك عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات⁽⁴⁾.

1- غريبي مراد: الملتقى الدولي حول: مالك بن نبي واستشراف المستقبل- من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد، تلمسان(الجزائر) 12-14 ديسمبر 2011، مجلة الكلمة، العدد(74)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، شتاء 2012، ص 166.

2- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، (ترجمة): عبدالصبور شاهين، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000، ص 74.

3- المرجع السابق، ص ص 32-43.

وفيما يتعلق بأراء بن نبي في معنى الثقافة من المنظور التاريخي، يُقرر بأنه لا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتماً تاريخه. فالثقافة تتضمن العادات المتجانسة والعبقريات المتقاربة والتقاليد المتكاملة والأذواق المتناسبة والعواطف المتشابهة. وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطى الحضارة سميتها الخاصة، ويُحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي، أو عقلية ديكرت، وروحانية جان دارك، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ. أما معنى الثقافة من المنظور التربوي، فإن الثقافة ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. ومن ثم فإن الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، وهي أيضاً الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية. ويتألف البرنامج التربوي للثقافة من أربعة عناصر هي: عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية، عنصر الجمال لتكوين الذوق العام، المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، والفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه، كما تعالج مشاكل الجماهير. فالثقافة هي الدم الذي يسرى في جسم المجتمع، يغذى حضارته، ويحمل أفكار العامة والنخبة، وكل هذه الأفكار تنسجم في بوتقة واحدة من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة⁽¹⁾.

إن الثقافة - كما يراها مالك بن نبي - نتيجة تاريخية تتكون من عناصر جوهرية أربعة هي: الدستور الخلقى، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والصناعة بتعبير ابن خلدون أو (التقنية). وأشار إلى أن الثقافة هي الجو المشتمل على أشياء ظاهرة مثل: الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد. بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر⁽²⁾. وتلك الفكرة عن الثقافة هي التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحضارة، وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. والثقافة -وحدها- لا تستطيع أن تكون أسلوب حياة لمجتمع ما، إلا إذا اشتملت على مبدأ أخلاقي، هذا المبدأ الذي يجعل كل فرد مرتبطاً بهذا الأسلوب، فلا يُحدث فيه نشوراً بسلوكه الخاص⁽³⁾.

يقصد بالثقافة في فكر مالك بن نبي هي الأفكار والعادات والقيم الاجتماعية، وما يتصل بالسلوك

1- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 126-127.

2- مالك بن نبي: تأملات، الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002، ص 147.
3- عائشة يوسف المناعي: مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي، مجلة المسلم المعاصر، العدد (101)، السنة السادسة والعشرون، يوليو- أغسطس-سبتمبر 2001، ص 146.

وأنماط المعيشة وطرائق التفكير. ومن هذه الثقافة ما يتصل بالفكر، وما يتصل بالنفس والسلوك. وإجمالاً فإنها كل ما يتصل بالحياة الروحية⁽¹⁾.

تُعد نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، واحدة من أشهر النظريات الثقافية التي ظهرت في المجال العربي المعاصر، وأكثرها خبرة ونضجاً وتماسكاً، واكتسبت تميزاً، خصوصاً مع غياب هذا النمط من النظريات إبداعاً واكتشافاً على مستوى الدراسات الثقافية في العالم العربي. مع ذلك بقيت هذه النظرية بعد غياب ابن نبي على حالها، ولم تشهد تطوراً وتقدماً، أو تراكمًا وتجديدًا مهمًا، لا من الناحية المعرفية والمنهجية، ولا من الناحية التحليلية والنقدية، وانتهت إلى وضع جامد، ومازالت على هذا الحال بدون تحريك أو تجديد. والذي كرس هذا الوضع الجامد هي طريقة التعاطي مع هذه النظرية، فالتعاطي معها لم يكن فعالاً من الناحية النقدية، أو معرفياً من الناحية التحليلية. وفي المجال العربي يمكن تحديد ثلاثة اتجاهات في التعاطي مع نظرية الثقافة عند ابن نبي، وهذه الاتجاهات هي: (2)

أولاً: الاتجاه الذي يتوافق مع النظرية، ويدافع عنها وينهر بها أحياناً، وهذا هو الاتجاه الغالب في الدراسات والكتابات التي أنجزت حوا أفكار ابن نبي ومنظومته الثقافية. وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من أهمية وقيمة وفاعلية الأفكار والمفاهيم والتصورات التي توصل إليها ابن نبي في مجالات الثقافة والحضارة والاجتماع، وضرورة التعريف بهذه الأفكار، والتواصل معها. وحتى بداية تسعينيات القرن العشرين كان في تقدير البعض أن فكر ابن نبي يتعرض لنوع من الإهمال أو الإقصاء أو التعتيم، وهذا ما عبّر عنه بعض الكُتّاب، وكان دافعاً لهم في إنجاز كتابات ودراسات حول فكره وسيرته. ومن هؤلاء "أسعد السحمراني" الذي خصّص رسالته للدكتوراه حول ابن نبي، وكانت بعنوان "مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً"، نشرها في كتاب عام 1984م. وكذلك "سليمان الخطيب" والذي كتب رسالته للدكتوراه بعنوان "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي"، ونشرت عام 1993م. وأيضاً نشر "وجيه كوثراني" مقالاً بعنوان "لماذا العودة إلى مالك بن نبي؟ الذاكرة والنسيان والتواصل في المشروع العربي الإسلامي".

ثانياً: الاتجاه الذي يتعارض مع نظرية ابن نبي وعموم منظومته الثقافية. وقد حاول أصحاب هذا الاتجاه الكشف عن بعض الأخطاء والعيوب الفكرية والثقافية في مؤلفات ابن نبي، ولفت الأنظار إليها، لعله بقصد الحد من توسع وامتداد أفكاره من جهة، والحد من جاذبية ولمعان هذه الأفكار من جهة أخرى.

1- بن عيسى باطاهر، مرجع سابق، ص 11.

<http://www.binnabi.net/infos/detail/9fdiy23I5py12ov/>

وهذه الأخطاء والعيوب المقصودة هي أفكار ومفاهيم كانت تُفسّر بطرق مُلتبسة عند هؤلاء. ومن هذه المفاهيم، مفهوم " القابلية للاستعمار"، الذي فسّره البعض على أنه يتضمن تبريراً للاستعمار، أو يدعو لمهادنته. في حين أن ابن نبي فسّر هذا المفهوم بأن الاستعمار هو نتيجة وليس سبباً. والملاحظ على أصحاب هذا الاتجاه أنهم لم يقدموا نقداً معرفياً لنظرية الثقافة عند ابن نبي ولمنظومة الثقافة بصورة عامة، ولم يساهموا في تطوير أو تحريك التعامل النقدي، والنظر التحليلي، أو حتى القراءة العلمية والمعرفية لأفكار ونظريات ابن نبي. والمثال الذي يصنفه البعض لأصحاب هذا الاتجاه، كتاب " الفكر الاسلامي المعاصر: دراسة وتقويم" لمؤلفه "غازي التوية" الصادر عام 1977م.

ثالثاً: الاتجاه الذي يتجاهل نظرية ابن نبي ومنظومته الثقافية، ولا يحاول الاقتراب منها أو الاحتكاك بها بأى صورة كانت، بما في ذلك الصورة النقدية. فلم يتطرق " سمير أمين" لهذه النظرية أو لصاحبها في كتابه " نحو نظرية للثقافة"، وهكذا " محمد عابد الجابري" في كتابه " المسألة الثقافية في الوطن العربي"، و"محمد أركون" في كتاباته حول الإسلاميات المعاصرة، وهكذا العديد من الدراسات والكتابات العربية الأخرى. وهذا التجاهل من الصعب التبرير له، خصوصاً وأن هؤلاء لم يقدموا نظريات تتجاوز نظرية ابن نبي في الثقافة أو تتفوق عليها. وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء أو بعضهم يتناقفون مع النظريات الغربية، ويرجعون لأفكار المفكرين الغربيين، كانوا في المقابل يتجاهلون النظريات والأفكار التي تنتسب إلى المفكرين الإسلاميين، ومنهم مالك بن نبي الذي من الصعب تجاهل نظريته في الثقافة.

لقد استطاع مالك بن نبي أن يبلور نظرية في الثقافة، وظل يلفت النظر والاهتمام لنظريته تلك، وذلك منذ أول كتاب له تحدث فيه عن الثقافة، وهو كتاب " شروط النهضة" الصادر باللغة الفرنسية في باريس عام 1949م إلى كتابه الذي خصّصه لهذه القضية وهو كتاب "مشكلة الثقافة" الصادر باللغة العربية في القاهرة عام 1959م، وكذلك من خلال الحديث عنها من خلال المحاضرات التي ألقاها في القاهرة ودمشق وطرابلس، وفي الجزائر بعد الاستقلال. ولقد عالج بن نبي مشكلة الثقافة من ناحيتين هما: (1)

أ- التحليل النفسي للثقافة: ركز في هذا البعد على بعض الملامح التاريخية التي ساهمت في تكوين مفهوم الثقافة، ومصدر هذه الكلمة، ومتى تم استخدامها في اللغة العربية، وكيف تبلور هذا المفهوم عند الأوروبيين. ولم يكن التحليل التاريخي للثقافة إلا مدخلاً تمهيدياً لتأكيد فكرة أن

كل

مجتمع بحاجة إلى تكوين مفهوم مستقل وخاص به لطبيعة مشكلته الثقافية، وذلك حسب مرحلته التاريخية. كما أن حديث بن نبي عن التحليل النفسى للثقافة كان بقصد تعميق التمايز الثقافى بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية. ولهذا فقد اعتنى بن نبي كثيراً بمناقشة أفكار رواد الفكر الليبرالى والفكر الاشتراكى التقدمى. ولذلك فإن منهج بن نبي فى بناء الشخصية الإسلامية يختلف عن مفكرى الغرب والشرق على حد سواء؛ نظراً لارتباط الثقافة عنده بالحضارة أكثر من ارتباطها بالعلم. أما من حيث تحديد الموقف المعرفى أو الرؤية العلمية تجاه الثقافة فإنه يتحدد على قاعدة التمايز والاستقلال الثقافى، وما يؤكد هذا التمايز الثقافى هو أنه لا ينطلق من الانقطاع الكلى والتام مع الثقافات والفلسفات الأوروبية، كما أنه لا خلفيات ساذجة من حيث التكوينات المعرفية والمنهجية.

ب- التركيب النفسى للثقافة: يرى بن نبي أن مشكلة الثقافة بين العالم العربى والإسلامى والعالمين الغربى والاشتراكى لا تكمن فى محاولة فهم الثقافة، وإنما تنحصر فى تحقيقها وتمثلها بصورة عملية وتطبيقية، وهذا ما يقصده مالك بن نبي بالتركيب النفسى للثقافة. وعبارة التحليل النفسى للثقافة يُراد منها الإجابة عن سؤال: كيف نُطبق الثقافة؟ بمعنى كيف يكون للثقافة واقع فعلى فى حياتنا؟

والبدء من التحليل النفسى للثقافة لأنه لا بد أولاً من تحديد فهم الثقافة، الفهم الذى يحتاج إلى منهج يحدد طبيعة ومحددات هذا الفهم للثقافة، الذى يفترض أن يتناغم ويستجيب للشروط التاريخية، ودرجة التطور الحضارى، ونوعية المشكلة الاجتماعية. وهذه الطريقة فى النظر هى التى يصطلح عليها ابن نبي بالتحليل النفسى للثقافة. والعمل على تحويل هذا الفهم للثقافة من حيز النظرية وعالم الأفكار، إلى حيز الواقع وعالم التطبيق، بحيث تتصل الثقافة بالمجتمع، ويتصل المجتمع بها، هذه المهمة، يصطلح عليها ابن نبي بالتركيب النفسى للثقافة. ومحاولة فهم الثقافة يحددها ابن نبي فى إطار التاريخ، وتطبيق الثقافة يحددها فى إطار التربية.

ثانياً: المفاهيم وثيقة الصلة بالثقافة فى المشروع الفكرى لمالك بن نبي:

رغم أن مالك بن نبي يُقر بأن أساسنا المفاهيمى ضعيف للغاية⁽¹⁾، فإن المتمعن فى قراءة مشروعه الفكرى يجده يشتمل على مجموعة من المفاهيم المهمة ذات الصلة بمفهوم الثقافة، ومنها: التمايز الثقافى، الاستقلال الثقافى، التوجيه الثقافى، العلاقات الثقافية، الفراغ الثقافى،

1- عادل خفاجة: قراءة في كتاب "فكرة كومونولث إسلامي" لمالك بن نبي، مجلة الأزهر، الجزء (2)، السنة (87)، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ديسمبر-يناير 2013، ص 403.

الموت الثقافي، الأزمات الثقافية، الاستلاب الثقافي، القابلية للاستعمار، تكديس الأشياء، المجتمع الميت، الفاعلية الاجتماعية، التقدم، الفكرة (الظاهرة) الدينية، الأفكار الميتة والمميتة.... وغيرها. ويمكن أن نتناول بعض هذه المفاهيم بشيء من التفصيل.

1- الموت الثقافي: هي حالة يصل إليها الفرد حينما يفقد صلته بالمجال الثقافي.

2- المجتمع الميت: هو المجتمع الذي فقد ثقافته أو قطع صلته بها أو لا توجد لديه ثقافة يتمسك بها⁽¹⁾.

3- العلاقة الثقافية: تقوم القيمة الثقافية للأفكار والأشياء على طبيعة علاقتها بالفرد. وهذه الصلة تُجسّد لنا ما اصطُح على تسميته بـ (العلاقة المتبادلة) بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في مجتمع معين، فهي الجانب العضوي من هذه العلاقة، ولذلك فمن المهم معرفة طبيعة هذه العلاقة وكيفية تكوينها لدى الفرد. والثقافة هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم أي بالمجال الروحي الذي يُنتج فيه وجوده النفسي، فهي نتيجة الاتصال بهذا المجال. وعليه فإن الفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي فإنه يكون قد مات موتاً مادياً، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتاً ثقافياً⁽²⁾.

4- القابلية للاستعمار: طرح مالك بن نبي مفهومه "القابلية للاستعمار" لجعل الذات جزءاً من المشكلة، وفتح المجال للنقد الذاتي، ولتوظيف القيم الدينية لإعادة إنسانية الإنسان بالاعتراف الشجاع بأن الاستعمار وإن كان زاد الطي بلّه؛ فإنه لم يكن السبب الأول لوضع الإنحطاط. كما أن الغرب المتقدم اليوم كان منحطاً بالأمس، والمسلمون المتأخرون حضارياً اليوم كانوا في موقع الريادة بالأمس، وكما انتقل أولئك من الإنحطاط إلى النهضة، فبإمكان المسلمين أن يخرجوا بدورهم من الانحطاط ليحققوا نهضتهم⁽³⁾.

والقابلية للاستعمار يقصد بها: الهزيمة النفسية التي يصاب بها أهل البلاد المستعمرة، ليصبحوا قابلين للاستعمار وتبعاته ومدافعين عنه، وهو معامل داخلي نفسي. ويركز بن نبي على ها المعامل كثيراً، ويعتبره بمثابة الانتكاسة النفسية للذات المغلوبة أمام الذات الغالبة؛ حتى تشعر بأن كل ما يقوله المستعمر ويصفه ويضعه هو الصواب، حتى ولو وصفه المستعمر بأي شيء، فيُعتبر في عرف

1- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 50.

2- المرجع السابق، ص 49-50.

3- محمد الحداد: القيم الدينية والتنمية وإنسانية الإنسان في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مجلة التفاهم، العدد(43)، السنة الثانية عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، شتاء 2014، ص ص 99-105.

المستعمر صحيحاً بل ويدافع عنه. ولذلك يرى بنى أنه لكى نتخلص من الاستعمار علينا أن نتخلص أولاً من القابلية له⁽¹⁾.

إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار فى أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر، ومادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا وتبيدها وتشتيتها على أيدينا فلا رجاء فى استقلال، ولا أمل فى حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، ولقد قال أحد المصلحين " أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم". إن الاستعمار لا يتصرف فى طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد، فجعل منا أبواقاً يتحدث فيها، وأقلاماً يكتب بها، إنه يُسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يُسخرنا له بعلمه وجهلنا⁽²⁾.

5- الأزمة الثقافية: تنشأ الأزمات الثقافية عندما يقف الأطراد الثقافى عن حركته، ويذول الجو الثقافى، ويتعذر تركيب العناصر الثقافية فى المنهج التربوى داخل المجتمع. ومن أهم التدايعات أو المآلات القريبة لنشأة الأزمات الثقافية، زوال الإلتزام بين المجتمع والفرد زوالاً تاماً، أما مآلاتها البعيدة فتتحصر فى أفول الحضارة. وتنمو الأزمة الثقافية، وتنمو معها نتائجها، من الحد الذى يمكن تداركه بالتعديل البسيط إلى الحد الذى يصبح فيه التعديل مستحيلاً، أو لا يمكن إلا بثورة ثقافية عارمة تكون بمثابة انطلاقة جديدة للحياة الاجتماعية من نقطة الصفر. وتبلغ الأزمة الثقافية للفرد عندما يُحرم من الجو (المناخ) الثقافى، فينعزل الفرد عن المجتمع عزلاً كاملاً، ويفقد كل علاقاته الاجتماعية. كما أن أى إخفاق يسجله مجتمع معين فى إحدى محاولاته إنما هو تعبير صادق على درجة أزمته الثقافية، أو بعبارة أعم، تعبير عن الأزمة التى تمر بها حضارته فى تلك المرحلة من تاريخه. وفى حالة الأزمات الثقافية الشنيعة التى حل ببعض المجتمعات، فإنها تجعلها عاجزة عن حل مشكلاتها داخل حدودها، وعن مواجهة مشكلات الجوار على حدودها، وبصورة أعم لا يستطيع أفرادها التعايش دون عقد نفسية تُعرض شخصياتهم للضعف وكرامتهم للمهانة⁽³⁾.

6- التقدم: قامت فكرة التقدم بدور رئيس فى تاريخ القرن التاسع عشر؛ لأن إشعاعها فى ثقافة أوروبا كان مؤيداً بفكرتين أخرتين هما: النظرية الوضعية لـ (أوجست كونت)، ونظرية التطور لـ (دارون). وقد وصل هذا الإشعاع للعالم الإسلامى فى مستهل القرن العشرين، بيد أن هذه الفكرة

1- سليمة ذياب وآخرون: أسس المقاربة الاجتماعية للتربية في فكر مالك بن نبي: نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، دار المثقف للنشر والتوزيع، 2020 القاهرة، ص 98.

2- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 208.

3- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 90-94.

التي أُصيبَت بصدمة خلال حرب (1914-1918)، أصابها ضربة قاتلة خلال الحرب العالمية الثانية، فلم يعد لها أدنى وقع في أوروبا. ولكن ليس معنى هذا أن التقدم في ذاته بوصفه واقعاً قد انعدم في أوروبا، بل معناه أن إشعاعه بوصفه قوة فكرية، قد فقد تأثيره في الثقافة الأوروبية، ففقد من أجل هذا فاعليته الاجتماعية. إذاً ففاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان⁽¹⁾.

ثالثاً: الصلات الوطيدة بين الثقافة ونهضة المجتمعات عند مالك بن نبي:

توجد رابطة وثيقة بين الثقافة والحضارة، وفي ضوء هذا تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. ولذلك يجب أن ندرك أن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة⁽²⁾.

يعول مالك بن نبي على عامل الثقافة في تفعيل الحوار الحضاري الإنساني، ولذلك يولي موضوع الثقافة أهمية بالغة في مشروعه الحضاري، أو علاجه لما أسماه بمشكلات الحضارة. ويرى مالك بن نبي أن موضوع الثقافة من أهم الموضوعات التي يجدر بالمتقف أن يشتغل بها بشكل خاص، لأن أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية. ويؤكد مالك بن نبي على أن الثقافة التي ينشدها الفكر الإسلامي ثقافة إنسانية شاملة، مستمداً ذلك من عالمية رسالة الإسلام، وهذا ما تُقرره النصوص القرآنية، إلا أن الثقافات الموجودة والمهيمنة اليوم ثقافات تفتقد للبعد الإنساني، بل هي استعلانية استلابية مبنية على مرجعيات لا تجعل للوحى وزناً، وهذا طبيعي لأن جذورها المعرفية تدل على فلسفتها المادية السلطوية العنصرية، فهي الغرس من الخارج بعد تفرغ الداخل، وليست ذاتية المصدر، جوانية المنبع؛ لهذا فإن التعامل معها يكون تعامل مُستفيد يُميز بين الصالح والطالح. على نقيض ذلك - في اعتقاد مالك بن نبي - العالم الإسلامي الذي انتظمت حياته عن طريق الفكر والتقاليد والعادات، مؤكداً هذه لصلة الموجودة عن طريق المناقشات التي دارت رحاها بين كل من الغزالي في المشرق وابن رشد في الأندلس بالرد والتمحيص⁽³⁾.

رُكز ابن نبي في مقارنته لشروط النهضة بالأساس على مشكلة الإنسان؛ فهذا الأخير هو محور أي تقدم، فإذا لم تُحل مشكلة الإنسان فإنه لا يمكن البتة الحديث عن أي تغيير يُذكر. ولذلك نجد أن ابن نبي قد فصّل تفصيلاً فيما يخص حديثه عن مشكلة الإنسان من خلال رسم منهجية واضحة قائمة

1- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 46.

2- المرجع السابق، ص ص 73-74.

3- نعيمة إدريس: موقف مالك بن نبي من الحوار الحضاري مع الغرب، مجلة الكلمة، العدد (87)، السنة الثانية والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2015، ص ص 61-62.

على أسس ثلاثة: توجيه الثقافة، ثم توجيه العمل، وأخيراً توجيه رأس المال. وفي ضوء ذلك يرى ابن نبي أن الفرد يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات: أولاً بفكره، وثانياً بعمله، وثالثاً بماله. ومن هنا فقد أكد ابن نبي على أننا بحاجة إلى حل مشكلة الثقافة؛ لأنها لا تخص طبقة دون أخرى، بل تعم المجتمع كله، فهي الدستور الذي تتطلبه الحياة العامة، فهي الدم الذي يُغذي جسم المجتمع وحضارته، ويحمل أفكار النخبة والعامة. ويرى أن المركب الاجتماعي للثقافة يتألف من أربعة عناصر، يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المثقفة، وهي: عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية، عنصر الجمال لتكوين الذوق العام، المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، والفن التطبيقي الموائم لجميع الصناعات في المجتمع⁽¹⁾.

رابعاً: المعالجة النظرية والتطبيقية للثقافة في المشروع النهضوي لمالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن تشخيص المشكلات وحلها يكون في الجمع بين الفكر والعمل، وذلك لن يكون إلا بتطبيق الإسلام بصفته خير ممثل لمعيار الحضارة، وهو الجمع بين الفكر والعمل⁽²⁾.

كان ابن نبي يواجه الواقع بإشكالياته الماثلة، ويتناوله بعقلية تحليلية وتفكير علمي ونزعة برجماتية مع الاستضاءة بمبادئ الإسلام وتوجهاته وقيمه العامة، وهو بذلك ينطلق من الواقع ويبحث في شروط التغيير الموضوعية وصولاً إلى تحقيق النهضة في إطار ما أسماه بالحضارة. من هنا كان اهتمامه ينصب بالدرجة الأولى على الإنسان المسلم والمجتمع المسلم أكثر من انشغاله بالإسلام كأحكام ونظريات، وهو بذلك أقرب ما يكون إلى عالم اجتماع إسلامي منه إلى عالم في الشريعة الإسلامية. كما تميز ابن نبي بما قدمه من تحليلات قيمة لواقع المسلمين، وما قام به من تشخيصات لطواهر ومشكلات تتصل بالثقافة والاجتماع والسياسة والتنمية، الأمر الذي أظهره عالم اجتماع إسلامي امتلك القدرة على الخوض في أعماق المشكلات والظواهر، وشكّل فكره إضاءة وهّاجة يمكن الاستنارة بها في مجال التغيير وأنشطته الثقافية والاجتماعية والتربوية على نحو بناء⁽³⁾.

لا يمكن أن نتصور تعريفاً للثقافة من زاوية نظرية فحسب، بل لابد أن يضاف إليها وجهة النظر العملية أو التربوية. وعليه فلو افترضنا أن تعريفاً معيناً توقّر له شرط الصحة، ولكنه في ذاته مقتصر على الجانب النظري، لم يكن - في رأينا - كافياً في بلد لا تُساعد ظروفه العامة على تكمله مضمونه بطريقة ضمنية؛ فعندما يضع أمريكي مشكلة الثقافة في إطار نظري، فإن مضمون الثقافة الأمريكية مُحدد من

1- حفظ اسليماني: مركزية الإنسانى البناء الحضارى: رؤية المفكر مالك بن نبي، مجلة التفاهم، العددان (55،56)، السنة الخامسة عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، مارس 2017، ص ص 347-350.

2- عائشة يوسف المناعى، مرجع سابق، ص 136.

3- على القریشى: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب ومحمد باقر الصدر، مجلة الكلمة، العدد (96)، السنة الرابعة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2017، ص ص 161-165.

قبل بحكم الظروف العامة الناتجة عن الحضارة الغربية. وعندما يذهب ماركسى المذهب نفسه في تعريفها، فإن مضمون الثقافة التي يعرفها مُكَمَّلَ ضمناً بفضل الأيديولوجية الماركسية. أما عندما يُراد تعريف الثقافة تعريفاً نظرياً في بلد ليس فيه ما يُكَمِّلُ هذا التعريف ضمناً، سواء بما توفّر لديه من تراث تاريخي أم أيديولوجي، فإن الأمر يصبح مشكلاً إشكالياً يحتاج معه إلى إيضاح. والخلاصة أنه إذا لم يكن لدينا سوى منظر واحد فإن (الصورة)-أى التعريف- لن تكون قابلة للتنفيذ، لا لأنها غير كافية؛ أو بعبارة أدق: إن الصورة لن تكون قابلة للتنفيذ إلا بما يوجد في عقل صائغها من عناصر ضمنية تُكَمِّلُها⁽¹⁾.

يؤكد ابن نبي على أننا أحوج ما نكون إلى المنطق العملى في حياتنا؛ لأن العقل التطبيقى الذى يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فهو يكاد أن يكون معدوماً في مجتمعاتنا. ويقصد بالمنطق العملى كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً بغير مقياس يستمد معاييرهِ من واقع الوسط الاجتماعى⁽²⁾.

يقرر مالك بن نبي أن المنطق العملى يُعد أحد عناصر أو مكونات الثقافة، فهو جوهر اتحاد الفكرة بالعمل، ويقصد به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، ويستمد معاييرهِ من واقع الوسط الاجتماعى. وأن المنطق العملى هو الذى ينقص المسلمين بصفة عامة، وهو السبب الأساسى في تخلفهم؛ لأن العجز في الأفكار يخلق في المجال النفسى عجزاً في المراقبة الذاتية وفي مراجعة وتقييم النتائج⁽³⁾.

خامساً: التحديات التى تواجه ثقافتنا العربية وفقاً لمنظور مالك بن نبي:

مازال العالم العربى، وفي نطاق الفكر الإسلامى بوجه خاص يفتقر إلى نظريات في الثقافة، يمكن لها أن تُنازع أو تُزاحم أو تحل مكان نظرية ابن نبي في الثقافة. وبعد ابن نبي لم تظهر نظرية في الثقافة تنتهى إلى المنظومة الإسلامىة، الأمر الذى يكشف عن ضعف شديد ينبغى تداركه، والتغلب ليه من خلال مضاعفة الاهتمام بحقل الدراسات الثقافىة⁽⁴⁾.

رصد مالك بن نبي مجموعة من المعوقات التاريخىة والثقافىة والحضارىة التى تعوق التقدم في المجتمعات الإسلامىة والعربىة عامة، وتقف حجرة عثرة أمام التقدم الثقافى في هذه المجتمعات بشكل خاص. وتتحدد هذه المعوقات فيما يلى⁽⁵⁾:

1- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 40-41.

2- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 39.

3- عائشة يوسف المناعى، مرجع سابق، ص 147.

- 4- ذكي الميلاد : مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي: النظرية والمنهج والتطور، مرجع سابق، ص 18.
- 5- بوعبد اللطيف لاوي: دور الفكرة الدينية في تحريك فاعلية الإنسان نحو البناء الحضارى في فكر مالك بن نبي: قراءة في الإمكانيات الدافعة والعقبات المانعة، مجلة عالم الفكر، العدد(186)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل-يونيو2022، ص ص223-232.

1- شخصنة المبادئ عن طريق استبدال الأفكار بالأشخاص:

من أهم المعوقات الثقافية والسلبيات الفكرية التي تعوق عمل الفكرة الإسلامية- وفق آراء مالك بن نبي- ارتباط كثير من المسلمين بالأشخاص والأشياء على حساب الأفكار، وهذا الأمر يُشكّل مع مرور الزمن حاجزاً نفسياً يُكبّل فكر المسلم ويُقيّد حركته في الحياة.

2- الانفصام الحاد في الواقع الإسلامى بين الفكرة (المبدأ) والواقع:

لاحظ ابن نبي وجود انفصام حادّ في سلوك المجتمع الإسلامى ، فهو مجتمع يتحدث كثيراً وفق مبادئ القرآن الكريم، ولكنه- في الغالب- يعيش بعيداً عن مقتضياتها العملية في واقعه الاجتماعى وعلاقاته الإنسانية. وردّ ذلك إلى غياب المنطق العملى، حيث أنه يعتبر المنطق العملى أحد العناصر الأساسية المكونة لمفهوم الثقافة، بالإضافة إلى الأخلاق، الجمال، والصناعة. ومن ثم فإن المشكلة ذات جذور ثقافية، بل هي مشكلة ثقافية في جوهرها؛ لأن الثقافة هي التي تحدد السلوك.

3- الجمود الفكرى والإستلاب الثقافى:

خلّص ابن نبي- في تحليله النقدي لواقع الثقافة الإسلامية- إلى أن من أهم المعضلات التاريخية الكبرى التي تواجهها هي مفصلة التقليد، والتي تعنى الاستكانة للواقع المملوء بالأفكار الميتة التي تحتاج إلى عقلية اجتهادية ونفس تجديدي؛ من أجل إزاحتها من طريق العقل المسلم، وإطلاقه من أسرها. ويزداد موقف العقل المسلم تعقيداً حين تجتمع عليه الأفكار الميتة الموروثة مع الأفكار الميتة المستوردة. ويقصد بالأفكار الميتة تلك الأفكار التي أنتزعت من إطارها الثقافى الأصيلى، ثم زُرعت قسراً في إطار ثقافى مختلف، وبيئة حضارية متباينة للبيئة الأصلية للفكرة المستوردة. فعلى العقل المسلم أن يمارس حذراً فكرياً تجاه هذا النوع الثانى من الأفكار؛ لأن المعطيات الثقافية ليست سلعاً معلبة جاهزة للنقل في كل الاتجاهات دون فرز وتمييز، ولكنها مُنتج ثقافة وثيق الصلة بالبيئة والشروط الموضوعية التي نشأ فيها. وخطورة هذا النوع من الأفكار تكمن في كونها تُجسد الوجه الثانى لعقدة العقل المسلم تجاه الآخر، فهو غير قادر على الاستقلال بالرأى وبلورة خياراته الخاصة بعيداً عن عقدة الاستلاب أمام الآخر، سواء أكان في صورة مُعطى تُراثى موروث أم كان في صورة إفرانز من إفرانات الحضارة الغربية الحديثة. والحاصل أن كلا النوعين من التقليد يُعمّق أزمة العقل المسلم، ويكرّس مشكلة التخلف في الواقع الإسلامى.

4- النزعة التمجيدية وضعف الفكر النقدي البنّاء:

ويقصد بذلك غلبة النفس التمجيدى في تناول التراث الإسلامى ودراسة قضاياها، وضعف الفكر النقدي الذى يتجه إلى غربلة هذا التراث، وتصفيته من الشوائب التى علقته به عبر التاريخ، وأثقلت وطأته على الواقع، وشوشّت على الجوانب الإيجابية الأصيلة المضيئة فيه.

5- غياب النظرة الكلية والبعد المنهجي:

ويقصد بذلك وجود بعض الشواهد الواقعية التى تُثبت معاناة الفكر الإسلامى من مشكلات التجزئة والتسطيح والعفوية والعجز عن بلورة رؤية إصلاحية تتسم بالعمق الفكرى والشمول والتماسك المنهجي، وكل هذا يكشف عن وجود خلل كبير فى الرؤية والمنهج. ومن شواهد غياب البعد المنهجي فى الواقع الإسلامى طغيان النزعة الكمية التى تنظر إلى قيمة الشئ من خلال كميته (عدده)، بدلاً من النظر إلى الفكرة والمضمون، وكذا طغيان النزعة الشعرية التى تقصد إلى الناحية الجمالية والصنعة البلاغية لتغطى على مواطن الخلل فى المجال المعرفى.

6- غياب روح المبادرة:

يرى بنى أن روح المبادرة هى المقياس الحقيقى لفاعلية الفرد، ومن ثم فهو ينتقد وضع المجتمعات الإسلامىة الذى سادت فيه- منذ زمن بعيد- روح السلبية والانسحاب، وفقدان القدرة على امتلاك زمام المبادرة فى التعامل مع مستجدات الحياة وتعقيداتهما.

7- خطورة الاستشراق على الثقافة العربية:

إن الاستشراق-كما يرى مالك - هو من أخطر الوسائل، وأمضى الأسلحة التى استخدمها الغرب فى هدم مصادر الثقافة لدينا، ذلك " أن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا تكاد نتصورها، وإن التأثير الذى أحدثته هذه الأعمال فى الحياة العقلية والفكر الدينى لدى بعض المثقفين من الشباب، أمر لاحظته الدارسون والمهتمون بالواقع الثقافى فى العالم الإسلامى⁽¹⁾.

8- شيوع الأفكار الميتة والأفكار المميته (القاتلة) فى ثقافتنا:

يُفرّق مالك بن نبي بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، فالأولى تحاول الحفاظ على الأفكار القديمة كما هى حتى وإن كانت ميتة. والثانية تستورد الأفكار الغربية وتمسك بها وإن كانت قاتلة. ويرى أن الأفكار التى فقدت الحياة بداخلنا هى الأخطر من المستوردة، حيث يقول: "ولو وجب علينا أن نُميز بين الفتيتين لقلنا أن الأفكار الميتة التى ورثناها من عصر ما بعد الموحدين، أخطر علينا من الفئة الأخرى"⁽²⁾.

يرى ابن نبي أن الأفكار الميتة (الموروثة) هى الأفكار التى انحرفت من الأصول ومن المثل العليا، ولذا ليس لديها جذور فى العصارة الثقافية الأصلية. ولذلك تُمثل هذه الأفكار عبئاً على العقل المسلم

ينبغي التحرر منه بامتلاك الجرأة الفكرية والعقلية الاجتهادية التي تستطيع حصر هذه الأفكار الميتة واستبعادها من دائرة الإرث الثقافي المستصحب في الواقع المعيش. ويقصد بالأفكار الميتة (المستوردة)

1- بن عيسى باطاهر، مرجع سابق، ص 11.

2- عائشة يوسف المناعي، مرجع سابق، ص 137.

تلك الأفكار التي أنتزعت من إطارها الثقافي الأصلي، ثم زُرعت قسراً في إطار ثقافي مختلف وبيئة حضارية مباينة للبيئة الأصلية للفكرة المستوردة. وإذا كانت الأفكار الميتة، وهي نتاج إرثنا الاجتماعي، قد تولد فينا القابلية للاستعمار، فإن من شأن الأفكار الميتة المستعارة من الغرب أن تُمهّد للاستعمار⁽¹⁾.

9- انتشار مرض (ذهان) التعالم بين المتعلمين:

تعد عُقدة الذهان من أخطر العُقد النفسية المرضية التي تُصيب الكوامن العقلية والنفسية والوجدانية الداخلية للفرد السوي فتُحيله بمرور وتفاعل الزمن المرضى إلى فرد مُتأزّم ومريض ومعقد. كما تعد هذه العقدة من أخطر الأسقام النفسية القاتلة التي تنخر ببطء في تماسك ووحدة ونشاط وانسجام الجماعات والمجتمعات. ومن هذه العُقد ذهان "الاستسهال" وذهان "الاستحالة" وذهان "التعالم" على حد ما ذهب إليه المفكر مالك بن نبي في كتابه "وجهة العالم الإسلامي". والفرد المتعالم يحدثك في الطب وعالم الأوبئة وكأنه طبيب مختص نظراً لما حصله من معارف عامة عبر الشبكات الإلكترونية، وما تنقله من أفلام وصور ومعارف سطحية. وأحياناً نجد حارساً أو بواباً أو عاملاً محدود التعليم، وفي نفس الوقت يُحدثك عن قضايا كبرى معقدة مثل منافع أو مخاطر التطعيم ضد وباء "كوفيد"، ويُخبرك لماذا هو امتنع عن أخذ اللقاح مُخالفاً نصيحة الأطباء، ويُعدد لك الأسباب والموانع التي حملته على ذلك⁽²⁾.

ومرض التعالم يعني الحرفية في التعلم والصعوبة كل الصعوبة في مداواته. والشخص المتعالم هو الذي بتر فكرة النهضة فلم ير في مشكلتها إلا حاجته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيسي لما في نفسه من كساد، فإنه لم ير في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده: طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد: فعلم يجلب رزقاً. ويظهر "المتعالم أو المتعاقل" نتيجة تحريف معنى الثقافة⁽³⁾.

ويرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي الذي ظل يُعاني -لفترة طويلة- من مرض الجهل والأمية على أوسع نطاق، قد ازداد حاله تأزماً بظهور جهل من نوع آخر، إنه الجهل الذي يُلبسه أصحابه ثوب العلم، فإن

هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام، فجهل العوام واضح ويسهل علاجه، أما الأول فهو مختفى في غرور المتعلمين وصعب العلاج⁽⁴⁾.

- 1- بوعبد اللطيف لوى ، مرجع سابق، ص ص 225-226.
- 2- أحمد عيساوى: دهان التعالم وأثاره على الفرد والجماعة، مجلة الوعى الإسلامى، العدد(687)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، يونيو/يوليو 2022، ص 96.
- 3- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 124-125.
- 4- سليمة ذياب وآخرون، مرجع سابق، ص 91.

10- غلبة منطق القول على منطق الفعل في مجتمعاتنا العربية:

ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاماً مجرداً، بل أكثر من ذلك. فهو أحياناً يُبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط. ومن هنا يأتى عقمنا الاجتماعى، لأننا حالمون وينقصنا المنطق العملى⁽¹⁾.

خاتمة: آليات تحقيق التنمية الثقافية وفقاً لرؤية مالك بن نبي:

لم يعد أحد يُجادل اليوم فى أهمية الثقافة فى المجتمع، وذلك من منطلق أن أدبيات المجتمع الدولى وتقاريره عن التنمية والمعرفة فى العقدين الماضيين قد ساهمت فى إبراز الأدوار التى تمارسها الثقافة فى تعزيز ومساندة مجالات التنمية الإنسانية. فقد أصبحت العناية بالبُعد الثقافى داخل بعض حقول المعرفة تُعد مسألة مُلحة، حيث لا تنمية فى الوعى السياسى الديمقراطى مثلاً من دون ثقافة سياسية جديدة، ولا إمكان لتحقيق النمو الاقتصادى من دون حد أدنى من القيم الثقافية المرتبطة بالتصورات والمبادئ المستمدة من التاريخ والمجتمع⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أنه لا يمكن لأى مشروع اقتصادى حسب رأى البعض أن ينجح من دون عمل ثقافى يسبقه، أو يأخذ على عاتقه إعادة تشكيل الإنسان الذى هو أساس النهضة والتنمية، فالمحرك الاقتصادى هو أحد نواتج الفكر والثقافة. والمأزق الاقتصادى هو بالضرورة نتاج لمأزق فكرى ثقافى، وأى تفكير فى حل اقتصادى يغفل الإطار المرجعى الفكرى والمتغير الثقافى للواقع هو تفكير يحمل بذور فشله⁽³⁾.

ومن ثم فإن "عبدالله شريط" يُميز بين مستويين هاميين فى أى مشروع نهضوى: مستوى التنظير، ومستوى الممارسة أو التطبيق. فلا يكف أن تكون الفكرة مناسبة، طموحة، وهادفة، ولا يكف أن

يكون الحماس لتطبيقها قوياً متدفقاً، ما لم تُحدد الاستراتيجيات المناسبة للتطبيق، والوسائل المادية والبشرية الكفيلة لإنجاح المشروع⁽⁴⁾.

- 1- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 140-141.
- 2- كمال عبداللطيف: الثقافة حرة وتنمية، مجلة العربي، العدد(710)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2018، ص ص 25-26.
- 3- الطاهر سعود، مرجع سابق، ص 136.
- 4- وسيلة يعيش حرم الخراز: مشكلة الثقافة بين مالك بن نبي وعبدالله شريط، مجلة الكلمة، العدد(77)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، خريف 2012، ص ص 67-68.

ونظراً لأن الثقافة تُعتبر أحد العوامل المهمة والمؤثرة في عملية التنمية، وذلك إنطلاقاً من تأكيد مالك بن نبي في كتابه "المسلم في عالم الاقتصاد" على الترابط الوثيق بين التنمية وقيم الأمة، والقيم بالطبع أحد أهم مكونات الثقافة في أي مجتمع، فإن الباحث يرى أنه من الضروري طرح مجموعة من الآليات التي تم استنباطها من المشروع النهضوي لمالك بن نبي- التي يمكن أن يُساهم الأخذ بها في صياغة سياسات ثقافية دقيقة وناجحة، وتنفيذ قرارات ومشروعات من شأنها أن تُحدث نقلة نوعية في الشأن الثقافي بمجتمعاتنا العربية، وبالتالي تتحقق التنمية الثقافية بالوطن العربي، ومن أهم هذه الآليات ما يلي:

- الاهتمام بالتنشئة الدينية والأخلاقية للأطفال والشباب، وذلك من منطلق أن الفكرة الدينية (البعد الديني) أساس الحضارة.
- تفعيل الموائيق الأخلاقية في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، وفي مؤسسات التعليم والثقافة والعمل بشكل خاص، وتطبيق مبدأ الثواب والعقاب على الجميع دون أية استثناءات.
- مواجهة الفساد بكافة أنواعه في كافة قطاعات المجتمع، وخاصة القطاع التعليمي (التربوي) حتى لا يُخرج لنا طائفة من المتعالمين (الجُهال الذين يلبسون ثوب العلم) الذين يفسدون في الأرض و لا يُصلحون.
- ترجمة المشروعات الفكرية (النهضوية) إلى سياسات وخطط وبرامج تنفيذية ثقافية تُنفذ على أرض الواقع بكل دقة وموضوعية.
- محاربة تضخم الذات والفردية والأنانية؛ لأنها تُعد بداية النكوص الحضاري والتخلف الثقافي.
- تحقيق مبدأ العدالة الثقافية بين كل المواطنين، وكافة الأقاليم داخل الدولة الواحدة، وذلك من منطلق مقولة مالك بن نبي " أن الثقافة ليست علماً لطبقة من الشعب دون أخرى".

- ضرورة التوظيف الإيجابي للأديان والفنون بمعارفها ورموزها وقيمها بحيث تساهم في تدعيم الجوانب الروحية وترسيخ القيم الأخلاقية للأفراد؛ وهذا من شأنه أن يدفع عجلة التنمية عامة، والتنمية الثقافية بشكل خاص إلى الأمام.
- ترسيخ دعائم ثقافة احترام وقبول الآخر (الديني، الثقافي، السياسي، النوعي، الفكري، اللغوي،... وغيرها) سواء داخل الدولة الواحدة، أو خارج حدود الدولة الوطنية مع الدول الأخرى. وضرورة التعاون معه بشتى السبل والاستفادة من خبراته في المجال الثقافي عملاً بمبدأ أن الثقافة تتحدد تاريخياً وقيماً وأخلاقياً داخل تخطيط عالمي.
- تبني الأفكار الإبداعية ورعاية أصحابها بشكل متميز يحفظ لهم مواهبهم ومكانتهم، ويُفيد المجتمع من عصارة عقولهم، وأيضاً محاربة الأفكار الهدامة (الميتة والمميتة) والتي من شأنها إلحاق الضرر بالأفراد والجماعات والمجتمعات.
- الاشتغال المستمر الواعي على بناء شخصية الإنسان وتطويرها دينياً وقيماً وثقافياً وتكنولوجياً وتربوياً، مع ضرورة إكسابه المهارات اللازمة لتكوين شبكة علاقات متميزة، وحُسن إدارته للوقت، وتدريبه على العمل الفريقي.
- الاهتمام بالتفكير النقدي والإبداعي، ومحاولة ربط الجانب النظري (النظريات والأفكار والمبادئ) بالجانب التطبيقي (الواقع المعيش).
- الاهتمام الكبير بالصناعات الإبداعية القائمة على المعرفة والابتكار، وتوجيه طاقات الشباب نحو الأفكار الجديدة والمشاريع الإبداعية، وتنمية روح المبادرة لديهم وفتح قنوات المشاركة الإيجابية في مجالات التنمية لهم.

المصادر والمراجع:

- 1- أحمد عيساوى: ذهان التعالم وأثاره على الفرد والجماعة، مجلة الوعى الإسلامى، العدد(687)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، يونيو/يوليو2022، ص96.
- 2- الطاهر سعود: مشروع النهضة فى فكر مالك بن نبى وتمثلاته لدى النخبة الجامعية الجزائرية بين زمن الاستقلال والزمن الراهن: استطلاع ميدانى، مجلة إضافات، العددان (47،48)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، صيف وخريف2019، صص115-141.
- 3- بن عيسى باطاهر: قضية إعجاز القرآن عند مالك بن نبى، مجلة عالم الفكر، المجلد(31)، العدد(2)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر-ديسمبر2002، صص 7-36.
- 4- بوعبداللطيف لاوى: دور الفكرة الدينية فى تحريك فاعلية الإنسان نحو البناء الحضارى فى فكر مالك بن نبى: قراءة فى الإمكانيات الدافعة والعقبات المانعة، مجلة عالم الفكر، العدد(186)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل-يونيو2022، صص 211-242.
- 5- بوعزة صالح: قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبى فى بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية فى ظل العولمة الثقافية ، 2019.
- 6- حفيظ اسليماني: مركزية الإنسان فى البناء الحضارى: رؤية المفكر مالك بن نبى، مجلة التفاهم، العددان (55،56)، السنة الخامسة عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، مارس 2017، صص 347-354.
- 7- ذكى الميلاد : مشكلة الثقافة عند مالك بن نبى: النظرية والمنهج والتطور، 2012، صص 15-17.
- 8- ذكى الميلاد مالك بن نبى ناقداً لإقبال، مجلة الكلمة، العدد(91)، السنة الثالثة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2016، صص 5-19.
- 9- سليمة ذياب وآخرون : أسس المقاربة الاجتماعية للتربية فى فكر مالك بن نبى: نحو نظرية عربية فى علم الاجتماع، دار المثقف للنشر والتوزيع ، القاهرة، 2020.
- 10- عادل خفاجة: قراءة فى كتاب "فكرة كومنولث إسلامى" لمالك بن نبى، مجلة الأزهر، الجزء (2)، السنة (87)، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ديسمبر-يناير 2013، صص 402-406.

- 11- عائشة يوسف المناعي: مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي، مجلة المسلم المعاصر، العدد(101)، السنة السادسة والعشرون، يوليو-أغسطس-سبتمبر 2001، ص، ص 123-156.
- 12- عباس شارف: في النقد الحضاري للمجتمع الجزائري: مالك بن نبي نموذجاً، مجلة أوراق فلسفية، العدد(26)، 2010، ص، ص 363-370.
- 13- عبدالقادر بوعرفة: مالك بن نبي بين الراهن والمستقبل: دراسة نقدية لرسم معالم البنائية الجديدة، 2020.
- 14- على القريشي: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب ومحمد باقر الصدر، مجلة الكلمة، العدد(96)، السنة الرابعة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2017، ص، ص 157-165.
- 15- غريبي مراد: الملتقى الدولي حول: مالك بن نبي واستشراف المستقبل- من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد، تلمسان(الجزائر) 12-14 ديسمبر 2011، مجلة الكلمة، العدد(74)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، شتاء 2012، ص، ص 161-169.
- 16- قويدري الأخضر: لماذا لم ينته المشروع الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر؟، مجلة الكلمة، العدد (80)، السنة العشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2013، ص، ص 146-159.
- 17- كمال عبداللطيف: الثقافة حرية وتنمية، مجلة العربي، العدد(710)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2018، ص ص 25-27.
- 18- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، (ترجمة): عبدالصبور شاهين، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000.
- 19- مالك بن نبي: تأملات، الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002.
- 20- مالك بن نبي: شروط النهضة، (ترجمة): عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، (تقديم): رضوان السيد، كتاب الدوحة، العدد(6)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2011.
- 21- محمد الحداد: القيم الدينية والتنموية وإنسانية الإنسان في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مجلة التفاهم، العدد(43)، السنة الثانية عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، شتاء 2014، ص ص 95-110.
- 22- ميشيل فوكو وآخرون: التحليل الثقافي، (تحرير): إيدث كريزويل وآخرون، (مراجعة وتقديم): أحمد أبوزيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008.
- 23- نعيمة إدريس: موقف مالك بن نبي من الحوار الحضاري مع الغرب، مجلة الكلمة، العدد(87)، السنة الثانية والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2015، ص، ص 55-72.

24- وسيلة يعيش حرم الخراز: مشكلة الثقافة بين مالك بن نبي وعبدالله شريط، مجلة الكلمة، العدد(77)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، خريف2012، ص ص 53-75.